٣- همس الحنين

يقع بيت"رجاء الفقي" أمام بيت حبيبها "غريب" مباشرة، وكان منزلاً عظيم البناء، كأنه قصر، وقد بناه أحد المهندسين الإنجليز قبل عام ١٩٥٠م، طوابقه الثلاثة عالية، على عكس العمارة الحالية، فارتفاع كل طابق يقترب من ٥ أمتار، بهدف مقاومة حرارة الصيف، والشرفات متسعة المساحة، مزركشة بالرسوم المتنوعة كما اللوحات الفنية، أما أرضيات البيت كانت مكسوة بحلل من الرخام الأخضر، وكان هذا البناء هو محل إقامة جدها العمدة، قبل أن يؤول إلى أبيها بعد تقسيم الميراث.

أما "رجاء الفقي"فكانت كالحورية، تميل إلى الطول قليلًا، بشرتها شديدة البياض الممزوج بالاحمرار، وجهها مستدير، وجبهتها عريضة، أنفها رقيقة، وشفتاها حمراء غليظتان، عيونها عسلية صافية لامعة، جسدها شديد التناسق، أما تاجها المطرز بالجلال، كان شعرها الطويل الناعم، الذي يتدلى مفرودًا كأمواج الليل فوق خصريها، كأنه غطاء من سحر الجمال الخالص، هيئتها وشكلها يضفيان عليها سمات العظمة البشرية، فتلجم الهيبة من يراها، عن متابعة فوران الأنوثة المشتعلة بكل سمات الجاذبية، فتخضع لحسنها كل القلوب الخضراء، كانت تجيد لغة التعبيرات الصامتة، فنظرة الغضب تشعر من أمامها بالضآلة، فيكف عن ملاحقتها، فراراً من هيبتها، ونظرة الرضا تمنح الموعود مفاتيح السعادة، فيطفو فوق نهر الرحيق بهمسة منها.

تطل فاتنة القرية كاللؤلؤة المنيرة من شرفة غرفتها، بالدور الثالث،تنتظر عودة "غريب"من القاهرة،لتطمئن عليه، لقد أفلت الشمس هذا اليوم، ولم يشرق وجه الحبيب كما النور فوق المساء، فقد اعتادت كل يوم أن تسترق النظر

ترقبه، وتتابع وصوله، ما يزعجها أن أمه في شرفة بيتها بالطابق الأول تجلس مهمومة، وكأنها تتقلب على الجمر من القلق،ودون أن تدري غاصت معها في بحار من الحيرة، وعلمت بفطنتها أنه لم يأت بعد، ومن لهفتها حدقت للتأكد، فكاد نصفها الأعلى أن يسقط بها في الشارع، وهي تمعن النظر خوفًا ولهفةً على الحبيب، ورغم خوفها من مجهول لا تعرفه، كانت كأنها البدر ينثر النور فوق الأرض، فيصبو المارة من الرجال نحوها، لعل بعضًا من رحيق أنوثتها يتساقط فوق رؤوسهم فيرتوي الحالمون بالحسن الفريد.

لم تكن الفتاة من فرط القلق تشعر بمن حولها، قد تأخر الحبيب عن العودة، فقد تعودت مع دقات الثامنة من كل مساء أن تلقي السلام عليه وجها لوجه عبر شرفتها التي تقابل شرفته مباشرة، ثم يتبادلون الحديث والرسائل ليلاً على صفحات "الفيس بوك".

بدأت قصة الحب العنيف والعفيف بينهما منذ أكثر من تسع سنوات، يوم أن كان "غريب" عائدًا من القاهرة بعد أن حجز تذكرة السفر إلى ليبيا للانطلاق منها نحو هولندا، وكانت "رجاء" عائدة من جامعة القاهرة تستكمل أوراق ترشيحها لكلية "الألسن"،جلست بجواره بالسيارة، رحب بها على أنها ابنة جاره "شريف حسونة الفقي"،وتبادلا الحديث، وعلمت الفتاة من الحوار بأنه سوف يسافر للعمل بالخارج.

كان التحدي في عيون الفتى يشي بأنه لا يهاب الخطر في سبيل الهدف، شعرت بأنها أمام رجل كامل النضج، فراحت تشكو له عما أصابها من إحباط جرّاء مكتب التنسيق، فبعد أن حصلت على ٩٢ % في الثانوية العامة لم تجد أمامها سوى كلية "الألسن"، وضاع أملها في أن تلتحق بكلية الصيدلة، كان يواسيها كأم رؤوم تبذر الحنان على طفلة رضيعة تصرخ من شدة الألم، شعرت بارتياح من فرط رزانته، ودون سابق إنذار سرت في روحها مشاعر لم تعهدها من قبل، ولم تدر ما هي، مر الوقت سريعًا، وعادا إلى القرية.

كانت سمعة الفتى كرياضي متفوق تملأ الآفاق بالقرية، فقد فاز في مسابقة

سباحة المسافات الطويلة للجامعات المصرية عام٢٠٠٦م، وهو بالفرقة الثالثة بكلية الزراعة جامعة القاهرة، وكُنيى بابن النيل نظرًا لمهارته في السباحة والصيد اليدوي من النيل، وكان كلما غطس في عمق الماء خرج، وفي فمه سمكة، وفي كل يد سمكة، كان شعلة نشاط، وكم عمل بالفنادق السياحية منذ أن اجتاز المرحلة الإعداية، وفي كل عطلة صيفية يعمل بفندق مختلف، كل شيئ فيه كان محل تقدير وإعجاب، أخلاقه، سرعة البديهة،حتى زيه رغم بساطته أنيق.

لم يكن كل ذلك في السابق يلفت نظر "رجاء" نحوه،ورغم أنهما جاران، ولا يفصل بين منزليهما سوى بضع أمتار، لم يلتفت كلاهما للآخر، إلا في هذا اليوم. ترك هذا اللقاء بصمة جديدة في نفسيهما، تأكد اثنتاهما أن سهم الحب قد استقر في قلبيهما في نفس اللحظة.

بعد أن عادت "رجاء"إلى المنزل، وأدلفت نحو غرفتها، تسترجع كل ما دار بينهما من حديث، كانت كلماته العذبة ترن بأذنيها كما الموسيقى. قضت الجريحة بالهوى ليلتها هائمة، ولم تنم إلّا كالغريقة في عشق الفتى.

وفي صباح اليوم التالي على محطة السكك الحديدية كانت على موعد مع القدر، وذلك حين وجدته يجلس في مقعد جانبي، في انتظار القطار المتجه نحو القاهرة، هرولت نحوه كأنها وجدت ضالتها:

- رجاء: صباح الخير يا أستاذ غريب.

- غريب: صباح النور يا رجاء، إلى أين أنتِ ذاهبة.

- رجاء: إلى القاهرة كي أشتري زي الجامعة.

- غريب: وأنا أيضًا ذاهب لشراء ملابس السفر، فالأسعار بالقاهرة أرخص من غيرها

- رجاء : نذهب معا.

- غريب: فرصة كي يساعد كلانا الآخر في الشراء.

جلست بجواره دون أن تبالي بنظرات أهل القرية، أو عيون الشباب من حولهما، كانت لا ترى سواه، دار بينهما حديث رقيق، من فرط الألفة بينهما، لم ينتبها إلى وصول القطار إلا بعد أن أطلق صافرته القوية، وهو في قلب المحطة استعداداً للمغادرة، بسرعة نهضا وركبا معًا، رافقته طوال اليوم في رحلة الشراء. كانت تستشيره في كل قطعة من الملابس قبل أن تأخذها، وتستجيب لرأيه. كان يتمتع بذوق رفيع، وهو أيضًا كان يأخذ رأيها فيما يشتريه من ملابس.

بعد الانتهاء من شراء الأغراض، دعاها لتناول الغذاء في مطعم صغير، أكلا بعضًا من سندوتشات الفول والطعمية، كان الطعام لذيذًا رغم بساطته، كأن حلاوة اللقاء امتزجت باللقيمات، وشربا بعضًا من المثلجات فذاب الحب فيها، كاد الوقت أن يسرقهما، عادا قرب المساء إلى القرية، وكل منهما يحلم بأن يرتبط بالآخر.

توطدت العلاقة بينهما، ولم يمض سوى شهراً حتى صارحها "غريب" بحبه الجارف، فتلقفت اعترافه بروحها، فارتوى قلبها بماء الحب الرقيق، فتلتحم الأرواح ببعضها البعض تزف السعادة فوق الرحيق الشَّهي.

كان هذا الحب الجديد بمثابة حافز جديد للسفر، فـ"غريب" لا مجال أمامه سوى إقامة مشروعه الخاص، فقد كان حلمه إقامة منحل لإنتاج العسل، ومزرعة للألبان، وهذان المشروعان يحتاجان لثروة طائلة، ولا يملك الفتى منها شيئًا، علاوة على بناء بيت أبيه القديم الذي تصدعت أركانه، فالمنزل مازال بالطوب اللبن، ولولا أنه من بقايا الرخاء منذ زمن الأجداد، ما صلح للمعيشة، فقد بُني على مساحة كبيرة، كعهد بيوت الأكابر القديمة في القرى.

ورغم بساطة البناء، قد تفنن البناؤون في زخرفته، فتحولت الجدران المصنوعة من الطين، إلى لوحة بيئية رائعة الحسن، الشبابيك كبيرة على هيئة مستطيل، وشرفة الدور الثاني محمولة على خشب السقف، على هيئة مشربية مصنوعة من الخشب "الزان"،أمام المنزل مساحة فضاء، تنتهي بسور من الطوب اللبن، ويتوسطه بضع شجيرات تضفي مسحة من جمال عليه، وخلفها حديقة

صغيرة بها بعض أشجار الفاكهة، كان كل ذلك يجبر تصدعه، ولولا ما حوله من أرض خضراء ما صلح للمعيشة، وذلك لانخفاضه عن الشارع بنحو متر، بسبب ارتفاع الشوارع التدريجي بالقرى، جرّاء عمليات الإحلال والتجديد، وردم الشوارع بمخلفات هدم البيوت اللبنية، وإقامة المباني الخرسانية بدلا منها.

لم تكن أسرته تمتلك من الأراضي الزراعية سوى فدان واحد، يكفي بالكاد لتأمين متطلبات الحياة، علاوة على مصاغ أمه "حميدة"الذي رفض قيامها ببيعه كي تبني المنزل القديم، وتزوجه، وذلك تحسبًا للطوارئ، نظرًا لكبر سنها، وتكرار تعرضها لبعض الوعكات الصحية، فقد خشي عليها من تبعات المرض، وخاصة بعد أن شاهد جارهم "جابر الوكيل"يموت بسبب عدم وجود إمكانيات بالمستشفيات الحكومية، وضعف قدرته على العلاج بالمستشفيات الخاصة، ولذا لا يوجد سبيل أمام الفتى سوى السفرللعمل، والعودة بالمال.

اشتعل صدر"رجاء"خوفًا عليه، لأنه ينوي السفرإلى أوروبا بطريقة غير شرعية، حاولت إقناعه بإلغاء فكرة السفرولكن دون جدوى.

في خضم ذلك، وحيث يغوص الحبيبان في بحر الهوى، والحيرة بسبب مغامرة السفر كان "سيف جاد" يعتصره الألم، فقد علم بعلاقة "غريب" مع "رجاء" التي طالما كانت تصده، وترفض حبه، كانت لا تطيق رؤيته.

فقد كانت خطة الفتى"غريب"هي السفر عن طريق ليبيا إلى إيطاليا بحرًا ثم إلى هولندا عن طريق سائق شاحنة هولندي موثوق به، فقد وعده صديقه"علاء بكر"الحاصل على الجنسية الهولندية بالعمل معه في مزرعة حماه، حال نجاحه في الوصول، ورتب كيفية تهريبه من إيطاليا.

لقد أخفي"غريب"عن أمه وجهته، فهي تعتقد أنه سوف يسافرإلى الكويت بعقد عمل،لأنها لوعلمت لمنعته بدموعها وخوفها، كان الفتى حنونا وبارا بأمه، بيد أن التحدي كان أكبرمنه.

أخفى مقصده الأن القرية قد فقدت العديد من شبابها في عرض البحرعلى سواحل أوروبا، كانت بعض الجثث تعود ملفوفة في الأكفان جثة تلو أخرى،

وآخرون لا تعود لهم جثة، ربما دفع الطريق المسدود بعض الشباب إلى الفرار من البطالة نحوالسفر المحفوف بالمخاطر،فما أقسى أن يشعرالمرء أن أعواد الأمل لا تخضر إلا بالعبور فوق باحة الموت، كانت المغامرة تساوي بقايا الأعمار، فإما النجاح في الهروب من الضياع، أو تسوقهم الأقدار نحو الدارالآخرة.

وعندما جاء موعد السفر خرجت "رجاء" تودعه وقلبها ينزف خوفًا على الحبيب من المصير المجهول، فهي الوحيدة التي تعلم وجهته، وقد حفظت سره رغمًا عنها، واتفقت معه على التواصل على"الفيس بوك" من بعد العاشرة مساءً بتوقيت القاهرة حال وصوله إلى هولندا، وسافر الفتى ليصارع المصير المجهول من أجل الحياة.

واليوم وبعد عدة أعوم من هذه الذكريات كانت تشعر بالقلق الشديد عليه،كما كانت تشعر قبل سفره منذ بضع سنين،ولاتدري سببًا لهذا الحزن، وهذا جعلها تسترجع بعض الذكريات الماضية، بحلوها ومرها، قلبها يخفق خوفًا منذ بداية النهار، فجأة وهي بالشرفة، كانت الساعة تقترب من الثانية عشر في منتصف الليل شاهدت سيارة "غريب" قادمة يقودها شخص لا تعرفه، وبجواره غريب وقد لفت يده في الجبس، طار عقلها،وعقدت العزم على النزول في ذات اللحظة لتعرف ما حدث لحبيبها، بيد أن ذلك سوف يسبب لها المشاكل مع أسرتها، ومن فرط القلق لم تستطع حسم أمرها، لأن خروجها في جوف الليل مشكلة كبيرة، وزّلة لا تغتفر، تشدها التقاليد نحو الصبر حتى الصباح، ويشدها الهوى بعنف من الجانب الآخر، كي تهبط للاطمئنان عليه، ولا أحد يتوقع ما هي فاعلة.